# الارض الشعر...

بقلم مصطفى صفدي

الشعر لهفة بدون موضوع . قلب يحب ولا يسعه اي قلب آخر . عين تنظر ، ولا تحيط بها عين غيرها . الشعر حركة تبدأ ولا تنتهي . الشعر انسان يتجاوز نفسه باستمرار الى ما لا يدرك ، الى ما هو اعظم او ابقى او ارد .

وبصرف النظر عن كل ما قاله المفكرون والباحثون عنه فهو هو في كل قصيدة ولا في بحث ، في كل رغبة ولا في موضوع ، في كل وتر ولا في وتر .

انه ميتافيزيقا الوجود حينما يصبح الوجود معبراً عنه في الحياة . ويقول الشعر إنسان يحس بقيمة وجوده . اي انه قادر على ان يحدس دوماً بالأعمق منه والأجل والأصيل . فالشعر اذن قبل التعقيل ، قبل الوعي ، قبل القلم والورقة ، قبل المجد والسماء . انه كائن يعرف عظمة الحياة وتفاهتها . يصيب الحقيقة بالحس ولا يقولها كلها لأنه ليس هناك ما هو تام ولا ما هو نهائي ولا ما هو يشبه الحكمة . ولما كان الشعر كائناً ، اي موجوداً حياً ، فهو طبيعة زمانية بحتة . ولشدة زمانيته يلوّح بالأبدية لأنه يستنزفها ولا تستنزفه . فهو التراب ، كل لون ، والأرض والجبل والحيوان والحقيقة المتجددة .. هو كل التفاصيل . فلا يعادل الأرض شيء كالشعر . فالأرض لها تاريخ ، نعي جزءه ونجهل كله . والأرض لها حدود عقلية والسائح وحده هو الذي يحتقر الجغرافيا ، هو من يعلم ان الأرض غير الخارطة وغير الجيولوجيا . وكل علم سطحيّ مكاني وكل شعر عميق غير كامل . العلم يعلمنا الحقيقة . والشعر وحده يعلمنا أننا فوق الحقيقة . وان الانسان وحده مقياس كل شيء . لا كما قال ذلك سفسطائي يوناني ، بل كما يقوله إنسان عرف ان ثقته بالعالم لا تشتق إلا من ثقته بذاته .

ولما كان الشعر الأرض ، ولما كانت الدواوين جزءاً من الارض ، كانت كتب الشعر ليست الشعر ، وكان القراء ليسوا الا من أهلتهم الصدفة الطائشة لأن يمتهنوا الشعر .

فالحديث عن الشعر لا يداعي في فكرنا مطلقاً الشاعر الذي نعرف ونقرأ ولا الديوان الذي نحفظ . الشعر لا يداعي لفكرنا أولاً الا نحن ، أو أنا .. أنا ابن الأرض .

فالشعر هو الانسان البديء . والانسان الشاعر هو الانسان المباشر لأصالته ، الممارس لروحه ، المعاين لأرضه . وبعد لن يكون في تاريخ الانسان شعراء مجدودون ممجدون .

ولن يكون الشعر في الورق والخزائن . إنه كله في فعل عفوي بسيط يحققه إنسان بكامل حريته مجابهاً للعالم .

فلا نتكلم اذن عما يحتاج الانسان ليصبح شاعراً ، ولكن عما يجب ان يتخلى عنه لكي يصيره . والحق أن الطريق الى الابداع الشعري سلبي كما هو الطريق الى الله . فكثير مما للانسان ليس للانسان . وكثير مما يؤهل للشعر لا يظن الشاعر انه عنده . ويصبح الشاعر إلهاً عند نفسه قبل الناس . وينطلق ممجداً موهبته قبل تمجيد الناس . والعكس ايضاً صحيح . فليس شاعر الناس دائماً بالشاعر عند نفسه . انه لم يقض شيء على أولية الانسان وبالتالي على كل مقياس أصيل الا الاكف المصفقة ، إلا الجماهير مأخوذة بسحر ساحر ، الا القطيع الذي تجاوز اولية الانسان الى تركيب رياضي مجموعي .

ومنذ ان اصبح الناس ، لا الانسان ، القيّمين على القيم ، ومنها الشعر — هذه القيمة الوحيدة الغريبة — بطل الشعر ، او صار ( ساحة عامة ) ، وتفنن القطيع في ضبط الشعر ، في جعله ثمرة مجهود ، وليس المجهود نفسه ، ومآل تحصيل ، وليس انبثاق فطرة ، وغاية تعقيل وتقليد ، وليس اندلاع بطولة ولا ابداع قمة :

ومنذ ان حكم القطيع في ابطاله ، تحولت البطولة — والشعر بطولة — الى بضاعة تتناقلها الأذواق ، من غير ذوق حقيقي . وذلك ما نرى نموذجه في الشعر العربي . فما ان تحول العرب الى قطيع حتى انقلب الشعر من انسان الى عبد ، ومن صحراء الى قصر ، ومن قلب الى جيب ، ومن كرامة الى مساومة ، ومن امرىء القيس الى الخليل بن أحمد وأبي تمام ، ومن المتنبي الى شوقي .

كان الشعر قضية فصار زخرفاً ، وكان ينبوعاً فصار بئراً ارتوازياً ، وكان تجربة فصار خيالاً ، وكان إبداعاً فصار تقليداً ، وكان مصدر الاخلاق والسلوك والقيم والقواعد ، فصار قاعدة وسلوكاً ومهنة . وكان امة ، فصار قطيعاً ، وكان في الصحراء فصار في الكتب الانيقة . كان في الروح ، فصار على المنضدة .

ولهذا عدنا اليوم فدعونا الى الالتزام في الشعر . وكلمة دعونا فيها شيء كثير من الافتعال . ولكن اذا نظرنا اليها على ضوء حقيقة الابداع اليوم وجدنا اننا في الواقع حينما ندعو الى الالتزام فكأننا ندعو الى الشعر الحقيقي الذي هو فوق الالتزام ، اذا ما فهم من الالتزام نوع من التقييد السابق والتضييق المقصود، اي هذا الجهد الفاصل بين مباشرته وغايته، أو هذا القلب الفاصل بين نبضاته ودمه . ولكن الالتزام ما هو الا دعوة الى ضد هذا المفهوم الضيق . انه دفع الشاعر الى شاعريته الاصيلة قبل دفعه الى خطة معينة . ومتى اصبح الشاعر ، شاعرنا، عربياً، اي ذلك الجاهلي الحقيقي، إلتزم قضية أمته وانسانيته من خلال ذاته بتمامها .

فالقصيدة الجاهلية كانت تاريخ الامة كله. كانت الحرب والتقاليد والثورة والحب والانسان العربي ، ليس كفكرة ، بل في وضع حي مليء بالعلاقات والاضواء المختلفة والانارات المنبثقة عن عناصر الوضع ذاته ، كل ذلك ضمن اندفاعة فنية مستبسلة بحب الواقع والتفاصيل والانفعال والفعل المباشر .

كل لفظة في الشعر العربي لها رصيد في الحياة ، أبعد ما تكون عن التجريد ، وهذا ما جعل المسمى الواحد يحفل بالتسميات العديدة ، التي تريد كل تسمية منها أن تقتنصه من زاوية الوضع الخاص الذي أوحى بها . وحتى الحكمة كانت خلاصة تجربة يقول بها الشاعر وهو يتقصى معناها بيده وأعصابه وزمام ناقته، ووجوده .

***

إن جميع المشكلات التي يعانيها الشعر اليوم، كل شعر وفيه الشعر العربي ، إنما نتجت عن تشويه حقيقة الشعر ، أي عندما اعتبر شيئاً من أشياء الناس ، ظاهرة من ظواهر المجموعة ، ترفاً وصلفاً وترفعاً وقاعدة للسلوك وكتاباً للدرس والتحصيل. فلا يمكن إنقاذ الشعر عن طريق الاقرار بواقعه ولا عن طريق موضوعه الخاص ، أو من خلال تحققاته التي قد يحتج انها وحدها سبيلنا الى الوصول الى منفذها. إن إنقاذ الشعر يكون بانقاذ الانسان نفسه .

فيخيل للنقاد ان مجرد البحث في مشاكل الشعر ، ينقذ الشعر . أي مجرد درس الوزن والقافية ومشكلة المبنى والمعنى والانتقال منها الى الشاعر لا باعتباره الانسان او الفرد ، بل هذا الشاعر ، هذه الآلة التي تنظم الابيات وتنضدها ، مجرد الدرس هذا يكفي للقول بأن الهدف قد بُلغ وبُشر بمستقبل أفضل للابداع الشعري .

نحن أمام شعر لا نعرف بعد ما هو ، إلا اننا نشعر انه ليس بالمطلوب وأنه غريب، أو على الأقل ليس هو الشعر الذي تغنيه نفوسنا ولا نستطيع إبرازه. حتى هذه اللحظة هو مشروع شعورنا هذا. وبعد يأتي إدراكنا الخطرَ الذي يهدد قيمة الشعر وبالتالي وجوده .

ولكننا نرتبك بعدئذ ، ونضل ، ونفعل كأننا لا نحس حقاً بالمشكلة الواقعة وهي أن شعرنا ليس شعرنا. أو أن هذه الكلمات المرصوفة على الورق .. إنها كلمات . فينطلق أحدنا يبحث عن المعضلة ضمن حدود المعضلة المتوهمة لا الموجودة . أي أن القصور الذي اودى بنا الى هذا الشعر المغالط هو نفسه الذي يدفعنا الى أن نضل ايضاً في مكافحة الخطأ . وبعبارة أخرى ، اننا نحن الذين نسمح لهذا الشعر بالوجود ، ونحن انفسنا بعد ، دون أي تغيير ، نطالب بغير هذا الشعر زاعمين أن عناصر الخطأ كامنة في الشعر وهو على الورق ، وليس في الشعر وهو في نفوسنا .

ولا مجال للانكار قط ان القصيدة اليوم ، مهما حاولت التوشج بالواقع ، فهي لا تزال أبداً محاولة ، اي ان مباشرتها مقصودة وبالتالي أبعد عن التعاطف الصحيح بين المعبر ومادة التعبير . وقد يخيل للنظامين أن مجرد الضرب على وتر القومية او الجوع او التشرد والطغيان بأنواعه إنما يلتزمون ، أو يبدعون شعراً جديداً . ويظنون أنه ما ان تنطلق أقلامهم في


صدر حديثاً

# الشيخ والبحر

لارنست همنغواي

**الرواية الفائزة بجائزة نوبل لعام ١٩٥٤ والتي عدها النقاد ملحمة النضال الانساني ضد عوامل الطبيعة القاسية**

**نقله الى العربية**

منير البعلبكي

الثمن ليرة وربع

**دار العلم للملايين**

أي لغط، في أي وزن او قافية، حتى يكون الشعر قد جاء. وهم بهذا في الحقيقة إنما ينطلقون من اسماء مجردة وأفكار قبلية ومماحكات جدلية . وقد يمسون الواقع أو لا يمسونه ، وقد يظفرون بشيء من التفاصيل الحية عرضاً ، ولا ينتهون اخيراً الا الى شيء نقرأه وكأننا نقرأ صحيفة أخبار ونحن نملأ فمنا وجوفنا بطعام الصباح .

هذا هو شعرنا اليوم ، بدون قضية . إنه مشروع ولا عمل . قصد ولا عفوية . شعرنا اليوم معزول عن صاحبه ، عن أرضه ، عن قارئه وعن ورقه . إنه حبك خطوط . إنه آلة صماء فحسب . ولهذا نطالعه ونحن نتثاءب . بينما تنطلق عيوننا بسرعة الى الحادثة ، الى الحقيقة ، الى جزء من الواقع والواقع كله ، من خلال ما يسمى قصة . وهكذا نحن نطلب القصة اكثر من الشعر ، نحن نقص ، أي نحن نتلبس شخصيتنا كما هي ، فنمارس حقنا في أن نكون ، في أن نتحدث عن أشيائنا وسرّاتنا وخرافاتنا وضلالنا . فهل سبقت القصة الشعر اليوم؟ أو أن القصة أصبحت الشعر حقاً ؟.

لننظر الى القصة هل هي هذا البداء المعادل للارض ؟

قبل كل شيء ، انه مشكلة للخيال وللواقع ، ليس لهما وجود بالنسبة للقصة . فكل قصة تشارك في الواقع ، بصرف النظر عن كونها تمثل حادثة وقعت في الماضي او لم تقع ابداً . ان مجرد بروز القصة بروزها الصحيح ، يكفي لان تصبح حادثة جديدة بين الحوادث ، صورة بين الصور ، وواقعة بين الوقائع ، شرط ان تكون من جنس الحياة نفسها لتستطيع الدخول في سيالتها . غير ان اختلافها الوحيد عن الواقعة ، هو ان القصة مكشوفة والثانية مجهولة . الاولى بارزة والثانية ضائعة . الاولى تعكس الجزء على الكل ، والثانية يفترسها الكل نهائياً . الاولى ذات ، والثانية موضوع . الاولى قدر ومصير ، والثانية مصير تحجر . الاولى ماضية ، والثانية مستمرة في في المستقبل . الاولى حادثة لانسان ، والثانية الانسان عينه الذي يوجد دائماً .

والفرق اخيراً بين شعرنا وقصتنا اليوم ، هو ان القصة توجد وان الشعر لم يوجد بعد ، القصة حكم وجود وتقرير واقع ، والشعر حكم قيمة ومثل اعلى . ولهذا نحن نتحدث عن القصة ونحللها باعتبارها تملأ جونا الادبي ، باعتبارها موجودة . ونتحدث عن الشعر باعتباره دعوة ونقداً واملاً . ولا سبيل ابداً للتحدث عن شعرنا القديم الاصيل . انه شعر لاجدادنا وليس لنا قط .

فالمشكلة هي اذن ان القصة التي نقرأ هي قصتنا ، وان الشعر الذي نقرأ ليس شعرنا . ويبدو ان هذه المشكلة ليست في الحدود العربية فقط بل انها في كل مكان حضاري . ان القصة في الرواية ، على مختلف انواعها ، يحتاجها اليوم كل انسان ، ولا يحتاج الشعر الا القليل من الانسان ، هذا الذي يغني اكثر مما يعمل ، اكثر مما يكون له حادثة .

وليس هذا يعني ان الانسان لا يريد الشعر ... بل ان هذا الشعر لم يستطع ان يلقى الانسان الحقيقي . انه ما زال يعاني السكون والخيال وكل التكلفات الاخرى التي لم يعد يعبأ بها انسان اليوم السريع ، القليل الثقافة ، الحي اكثر من اي كتاب ، المتأزم أكثر من أي دراما شعرية . فالواقع ان حياة الانسان أصبحت تسبق تأمله وتفكره ، وأصبح على الفنان أن يبدع وهو داخل حياته نفسها ، وهو في قلب المشكلة ، في صميم الحال ، فليس له قطعاً أن يتعالى ، أن ينعزل ، أن ينقلب الى قدرة على التجريد ، وليس على الحياة .

إن رأس الفرد الانساني الى الارض اليوم ، بين خطواته ، وجسمه بين الأجسام ، بين الجدران ، ويداه دائماً تقعان على


صدر حديثاً عن :

دار الفكر الجديد - بيروت

المصابيح الزرق

بقلم

حنا مينه

رواية واقعية ، تجري حوادثها ايام الحرب الاخيرة في اللاذقية .

الرواية التي تصور نضال الناس البسطاء ...

مع ست لوحات فنية رسمت خصيصاً للرواية

الثمن ٢٥٠ ق . ل .

# ارض المعاد

[ مهداة .. الى العـائدين الى فلسطين مع الفجر .. غداً . ]

انا لحن يفيض بالدمـع والآه ، وناي ملوع الانشاد
جئت أرثي قتلاي في ساحة النور ، وأبكي بعض الدموع بلادي

إخوتي في الخيام ، قدمت إكليلي وفاء ، ولم ازل في حدادي
أحسب النازحين لم يبرحوا الدار سوى امس ، في الصباح النادي
يوم قالوا : غداً نعود .. وما عادوا ، وهاموا في كل قفر وواد
ثم سيقوا الى العراق يعيدون حكايا التـاريخ من عهد عاد
وعلى رأسهم « نبوخـذ » مزهواً بسبي النساء والاولاد
« بابل ، أورشليم » .. ما أحمق الذكرى وأضرى لهيبها في الفؤاد

ذكّروني بالله بالكرمل الساجي على البحر ، بالربى ، بالوهاد
بالظلال الخضراء ، بالكوخ ، بالجدول . ويحي لقد اضعت بلادي
بقيت لي ذكرى اليتيم حبيبه ، ودمع اليتيم في الاعيـاد
بقيت لي من الحديقـة اشواك ، وقلبٌ دام وعين سهاد
ذكروني بالله اطياف ماضي ، أضعت التراث من اجدادي

وأعيدوا في مسمعي بحة الناي ، وما غنى في الرمال الحادي
إنّ « ليلى » هناك لم تبرح الكوخ ، وظلت و « قيس » في ميعاد !
حين مالت على التراب ، وعيناها كنجمين غُبرا بالرماد
خلتني ابصق الحياة الى الريح ، واخشى على الوجود اتقادي
إن « ليلى » هناك ، في هدأة المطلق ، في الصمت في القرار الهادي
لا عَتابا من بعدها توقـظ الفجر وريا الزهور ملء الوادي
وافترقنا ، وحين ولّيت وجهي ، كانت اللثمة الاخيرة زادي
من لماها الصفراء ، من جيدها الذاوي ذليلًا موشحاً بالسواد
من لماها الصفراء ، كالثأر يدعوني ، كهمس الجراح في الاكباد

ذكروني بالله ما كان من أمسي ، وشقوا الي درب جهادي
انا اعمى ، لكنني أقحم الدرب اذا كان خلف دربي مرادي

واذا مت ، فاجعلوا بعد موتي ، قرب صفصافة هناك رقادي
لن يطول الفراق ، في الصبح ألقاكم ، ونزهو بالنصر والاعياد
ويعود البستان ، والكوخ ، والنايُ .. جميعاً لنا بارض المعاد

رام الله — **يوسف الخطيب**

أشياء ، وعيناه قاصرتان . ليس له أفق أبعد من يديه ، من جداره ، من حيه . لأن كل أفق حقيقي أصبح ضمن هـذه الحدود نفسها . فليس الانسان هو الذي ينطلق الى الافق ، الى العالم . بل العالم هو الذي يبرز دائماً ضمن كل حال جزئية يقع فيها هذا الانسان . إن المسافة الحديثة لم تعد طويلة إذ اصبحت للانسان قدرة على اجتيازها ، ليست طويلة ولكنها عميقة .

استطاعت القصة إذن أن تعادل الانسان وأرضه . ولم يستطع الشعر بعد . ومهما لاقينا الشعر في القصة نفسها ، فلا بأس ، بأن نتمنى الشعر مستقلًا .

إن النقطة الأخيرة التي يقف عندها هذا المقال السريع ، هي أننا يجب قبل كل شيء ، ان نبحث عن الانسان في القصيدة ، سواء كان المبدع أو القـارىء ، أو في موضوع القصيدة نفسها .

وكل إنتاج أدبي ملزم لصاحبه . فلا مجال للمغالطة ولا للغش ولا للاصطناع والنية السيئة . واكثر هذا الانتاج إلزاماً لصاحبه هو الشعر . فنحن اليوم نطالب كل إنسان ، اي إنسان عادي ، أن يكون مسؤولاً عن إنسانيته ، التي هي حرية ، وراء عمله ، فكيف الشاعر .. هذا الانسان الى اقصى حد ؟

إنه ليس عنيفاً ، حينما يكتب الشعر ، ليس حركياً ، ليس دموياً ، ليس أرضياً البتة . إنه راصف ألفاظ ، يتاجر بها بين القطيع للفوز بالاعجاب الأبله والمجد .. مجد على قطيع !

فهو تارة قاموس ، وتارة ميزان ، وتارة كتب صفراء ، وتارة ثورة مفتعلة تطيح بكل شيء ، بالشعر ذاتـه ، ودائماً يبقى هذا الشاعر نفسه في كل الحالات . انسان بدون حرارة بدون تجربة . شخص يضع الخطط للفوز ، وليس قصيداً ابداً .

فليكن لهذا المخلوق دم ، قبل كل شيء ثم ليشعر بمسؤوليته عن دمه وعن البقعة التي يقف عليها من العالم ، ثم ليحـاول الشاعر بعدئذ .

دمشق — **مطاع صفدي**